

كتب بالعربية

صدي القيد

أحمد سعادات

بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٧. ١٨٩ صفحة.

عنصران يميزان كتاب أحمد سعادات "صدي القيد"، الصادر أخيراً عن "دار الفارابي" في بيروت، والذي يُنتظر صدوره أيضاً في كل من رام الله وغزة: الأول أن موضوع الكتاب جديد في سياق معالجة قضية الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية، فقد جرى التركيز على حالة "العزل"؛ الثاني، كيفية خروج مادة هذا الكتاب من خلف جدران المعتقل، إذ يشدد السجان الإسرائيلي الإجراءات القمعية على قادة الحركة الوطنية الأسيرة، وخصوصاً ضد الأمين العام للجهة الشعبية لتحرير فلسطين أحمد سعادات الذي يُنقل بشكل دائم من معتقل إلى آخر. أمّا كيف خرجت هذه المادة، فمن خلال عملية طويلة ومعقدة، ذلك بأن النصوص كُتبت على

قصاصات أوراق بأحرف صغيرة جداً حُشرت في كبسولات، تم بلعها ثم استخراجها لاحقاً. وعملية الكتابة وإخراج المادة وجمع القصاصات تطلبت أكثر من ٤ أعوام، كي تصبح على ما هي عليه في "صدي القيد"، وفق ما قالت صمود سعادات، ابنة أحمد سعادات، في كلمة مصورة ومسجلة، خلال إطلاق الكتاب في حفل أقيم في قاعة الأونيسكو في بيروت في ٢٤ تموز/ يوليو ٢٠١٧. يفتتح أحمد سعادات الكتاب بإهداء "إلى كل من عانى ويعاني، أو واجه ويواجه القهر والظلم والاستبداد والتعذيب والعزل والتمييز [...] إلى أمي وزوجتي وإخوتي وأخواتي وبناتي وأبنائي الذين عانوا مشقة الغياب معي، وأخص منهم أخي الشهيد محمد الذي استشهد واقفاً وأبى إلا أن يكون نداً."

والإهداء يشبه مادة الكتاب كلها، لجهة كون الكاتب يكرّس "تكران الذات" الذي يجب أن يتميز به الثائر، فكيف إذا كان الثائر قائداً؟! فهو يتحدث دائماً عن رفاق الأسر ومعاناتهم من دون أي يتحدث عن نفسه، وهو من المعتقلين الأكثر تعرضاً لحالة العزل والاستثناء والحرمان من الاستقرار. والجدير ذكره هنا، وهذه معلومة مررها مسؤول الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مروان عبد العال في الحفل، هو أن والدته سعادات لبنانية من منطقة الكورة في شمال لبنان. وقد طور عبد العال هذه المعلومة لاحقاً في اتصال خاص أجريته معه، إذ أفادني بأن والد أحمد سعادات التقى والدته في القدس التي هي محج المسيحيين الذي كان يطيّب للكثير منهم البقاء عنده، إذ كانت والدته تحج إلى القدس فأعجب بها والد أحمد وأعجبت به، وتزوجا وبقيت بالتالي في فلسطين، وكوّنا معاً عائلة. والوالدة، وفق عبد العال، هي من عائلة توما. قضية "العزل"، محور الكتاب، تحيل القارئ مباشرة

إلى كتاب ميشال فوكو
"المراقبة والمعاقبة: ولادة
السجن" (Discipline and
Punish: The Birth of
Prison, New York:
Vintage Books, 1977)
الذي يشرح مطولاً في القسم الرابع
منه، والذي هو بعنوان:
"السجن"، مسألة "العزل"، مشيراً
إلى أن هذا العقاب صناعة
أميركية لها نظامان: نظام
"أوبورن" وهو عزل جزئي يراد
منه إعادة تأهيل السجين،
ونظام "فيلادلفيا" وهو عزل
كامل تمارسه سلطات السجن
الإسرائيلية، بل تقوننه وفق
استثناء يحيل إلى كتاب
الفيلسوف الإيطالي جورجيو
أغامبين "حالة الاستثناء"
(State of Exception)
Chicago & London: The
University of Chicago
(Press, 2005).
يتكون الكتاب من إهداء،
وتقديم بعنوان "يولد الفرع من
عمق الألم" لسحر فرنسيس
مديرة "مؤسسة الضمير لرعاية
الأسير وحقوق الإنسان"،
وتقديم ثانٍ من دون عنوان
كتبه رئيس هيئة شؤون
الأسرى والمحررين الوزير
عيسى قراقع، ثم سبعة فصول،
وخاتمة، وملاحق، وكلمة
ختام.

عندما يصف أحمد سعدات
المعتقلات والزنايات
وتفصيلاتها، يبدو كمهندس
يقيس المسافات والمساحات،
ورسام انطباعي ينقل ما
يشاهده بدقة، وباحث لا
يتجاوز أي تفصيل لدى تناوله
حالات أسرى ومعتقلين،
ومتجرد غير منحاز إلى
جماعته، عندما يطيل الحديث
عن أسرى أجنب مثل كوزو
أو كوموتو، وحتى إسرائيليين
مثل مردخاي فعنونو، وبن
زيغر "العميل أكس"، والضابط
الشركسي في الجيش
الإسرائيلي عزت نافسو.
وهو قائد سياسي يخصص
الفصل السابع لـ "دروس
مستخلصة من تجربة العزل"،
وهي سبعة دروس/توصيات
يمكن تلخيصها على النحو
التالي: (١) ضرورة إعادة
الاعتبار لتماسك الحركة
الوطنية الأسيرة التي تكاد
تهشمها كل من سلطتي "فتح"
في الضفة و"حماس" في غزة
على حد سواء؛ (٢) تجنيد جميع
القوى والقدرات والآليات
خارج السجن لمناصرة
الأسرى الذين تركوا وحدهم
تقريباً في إضرابهم الأخير عن
الطعام؛ (٣) إخراج "مواضيع
ومحاور الاشتباك مع العدو
(القدس، الاستيطان، الأسرى،

الجدار... إلخ) [...] من دائرة
المناكفات السياسية وأمراض
الانقسام؛" (٤) مقاطعة محاكم
الاحتلال الصورية؛
(٥) احتضان الأسرى غير
المندمجين والمرضى من
جانب القيادات والكوادر داخل
السجون؛ (٦) شد أزر
المناضلين الذين يتم
إخضاعهم للعزل الانفرادي
لتقوية المناعة لديهم؛
(٧) القائد أو الكادر الذي يُعزل
انفرادياً يجب ألا يسمح للسجن
بأن يعيش بداخله، بل أن
يصمم على البقاء حراً ومتحرراً
من السجن وقضبانهِ وعزلته.
تلك الدقة، وذلك الموقع
القيادي، لا يلغيان روح
الروائي، بل إن أحمد سعدات
يضيف مشاعر إنسانية خلال
سردياته، فيقول عن المشاعر
التي تنتاب الأسرى بعد طول
أسر: "بمرور السنين، يفقد
الأسير المعزول علاقته
بالطبيعة، فيصبح غريباً عن
الشجرة، وتصبح عيناه في
أمس الحاجة إلى رؤيتها
ورؤية القمر، أو إلى رؤية
نجمة، أو قطة تحوم حول
البيت [...] يختفي الشعور
بمتعة المطر، أو بشروق الشمس
[...] أو بسلحفاة تحاول سرقة
طعامها من حديقة" (ص ١٠٩ - ١١٠).

تبقى الإشارة إلى سلبيات تحريرية. فإذا كانت عملية إخراج المواد التي تكوّن منها هذا الكتاب، معقدة وشاقة، فضلاً عن صعوبة نقل تلك المواد من القصاصات إلى الورق الكبير و/أو الحواسيب، فإن إعادة ترتيب تلك المواد في نص متماسك ينبغي لها أن تكون هي المهمة الأسهل التي لم تنفَّذ كما يجب؛ ففصول الكتاب متناثرة وغير متناسقة، وكثير من الهوامش (الضرورية

للنص) طويلة وبعضها يجب أن يكون جزءاً من المتن، بينما بعض ما ورد في المتن يمكن أن يُحال إلى الهوامش، أو إلى الملاحق، مثل: أسماء الشهداء، والإطناج في الاستشهاد بقرارات دولية أو مواد من اتفاقات أممية أو إعلانات سواء في متن النص أو الهوامش (الفصل الثالث: الغلاف القانوني لتشريع سياسة العزل)، فضلاً عن نصوص ترد في الهوامش، مثل

نص "غرف العار أو العصافير" (ص ٥١ - ٥٣) الذي أعتقد أن من الملائم أن يكون في فصل وحده لما له من أهمية. ما سبق من ملاحظات، لا يقلل أبداً من شأن الكتاب وما تضمّنه من مادة دسمة، بل المأمول أن تؤخذ بعين الاعتبار، فيعيد صوغ تلك المادة في طبعة جديدة يكون النص فيها أكثر تماسكاً وسلاسة.

أنيس محسن

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بلادنا فلسطين (الجزء الأول) جغرافية فلسطين وتاريخها: نظرة عامة

مصطفى مراد الدباغ

تقديم: وليد الخالدي

٧٨١ صفحة ٢٥ دولاراً